سلطان المماليك

في العهد العثماني

للأستاذ عبد الباسط محمد حسن

كثيراً ما يتساءل المؤرخون والباحثون: لماذا لم يتخلص السلطان سليم العثماني من البقية الباقية من المماليك بعد أن تم له فتح مصر في سنة ١٥١٧ م؟ ولماذا لم يقض عليهم قضاء نهائياً حتى يستريح منهم ومن أحقادهم.. ويخلص البلاد من شرورهم وآثامهم؟

أكان ذلك ناجماً عن ضعف الدولة العثمانية.. وعجزها عن القضاء عليهم.. أم كان ذلك.. وفقاً لخطة موضوعة.. وسياسة مرسومة؟

الواقع أن السلطان سليماً، كان رجلاً حربياً وإدارياً من الطراز الممتاز.. بحيث أننا لا نستطيع أن نقول إنه أخطأ في عمله هذا.. خصوصاً وأنه لم يرتجل سياسته التي سار عليها في حكم البلاد.. بل أنه فكر فيها كثيراً قبل أن يضعها.. وبقي في مصر.. فترة من الزمن بعد انتصاره على قوات المماليك، للتعرف على نظام الحكم فيها، ولوضع سياسة ثابتة، تضمن بقاء مصر تابعة له وللدولة العثمانية.. ولو كان السلطان يرى في وجود المماليك بمصر خطراً يهدده.. لتخلص منهم ولأنامهم عن آخرهم..

إذا رأى السلطان ببعد نظره وثاقب فكره أن.. بُعد مصر عن مقر الحكم في الآستانة.. قد يساعد حكامها وولاتها على الاستقلال عن الباب العالي، فقضى بتوزيع السلطة بين عدة عناصر: فالباشا ومعاونوه يمثلون السلطان العثماني ويحكمون الولاية ويشرفون على إدارتها.. والديوان يعاون الباشا في الحكم، وله حق عزله والاتصال رأساً بالباب العالي.. والحامية العثمانية تشترك في الحكم والإدارة أيضاً.. إلى جانب مهمتها الحربية.. ثم هناك إلى جانب هذه الهيئات الثلاث هيئة أمراء المماليك من رجال العسكرية.. يشتركون في الحكم والإدارة وفي

وقد ألفت كتب في هذا الموضوع استعرضت تاريخ الفاجعة بصورة مسهبة ضافية وشحنت بالقصائد المولة باللغة الفصحى والعامية كما أنه نشأ في الأدب الفارسي والأدب الهندي والتركي أيضاً قصائد طويلة تردد مأساة كربلاء وترى أبناء هذه الأمم ينشدونها عندما يقدمون العراق لزيارة قبر الإمام الشهيد في كربلاء أو أبيه في النجف الأشرف. وأن أبرز رثاة الحسين (ع) في الأدب العربي هو السيد حيدر الحلي وقد عرفنا به كتاب (العراقيات) بأنه كان رحمه الله شاعر العراق على الإطلاق حلي البلد (نسبة إلى مدينة الحلة على الفرات قرب أطلال بابل التاريخية) هاشمي النسب ينتهي نسبه إلى الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) وقد ولد في شعبان في سنة ١٢٤٦ وتوفي في ربيع الآخر من سنة ١٣٠٤ هـ وعرف بشاعر أهل البيت حيث انتحى في أكثر شعره مدحهم ورثاءهم؛ وقد بلغ من رثائهم درجة سامية لم يدع فيها سبقاً لمستبق من متقدمي الشعراء ومتأخريهم. على أنه لم يقصر في النسيب والفخر والمدح عن غيره من فطاحل شعراء العراق قال في رثاء سيدنا الحسين

قد عهدنا الربوع وهي ربيع أين..؟ لا أين انسها المجموع
درج الحي أم تتبع عنهـا نجع الغيث أم بدهياء ريعوا
لا تقل شملها النوى صدعتـه إنما شمل صدري المصدوع
كيف أعدت بلسعة الهم قلبي وترها يرق به اللسوع
سبق الدمع حين قلت سقتهـا فتركت السما وقات الدموع
فكأني في صحنها وهو قعب(١) أحلب الرزن والجفون ضروع
بت ليل التمام أنشد فيهـا هل لماض من الزمان رجوع
شاطرتني بزعمها الداء حزناً حين أنت وقلبي الموجوع
يا طروب الهدى خانك عني ما حنيـــني صبابة وولوع
لم يرعني نوى الخليط ولكن من جوى الطف راعني ما يروع
قد عذلت الجزوع وهو صبور وعذرت الصبور وهو جزوع
عجباً للعيون لم تغتـــد بيضاً لمصاب تحمر فيه الدموع
وأبي شابت الليـــالي عليه وهو للحشر في القلوب رضيع
أي يوم بشفرة البغي فيـــه عاد أنف الاسلام وهو جديع
ما لشمس النهار فيه طلوع والشمس الحديد فيه طلوع
أبها طارت النفوس شعاعاً فلطير الردى عليها وقوع
قد تواصت بالصبر فيه رجال في حشى الموت من لقاها صدوع

الخ

ضياء الدخيلي

---

(١) القعب هو القدح الضخم.

الدفاع عن حدود البلاد وقد كان فى مقدور السلطان وفى استطاعته أن يقضى على قوات المماليك .. خصوصاً وأن الدولة العثمانية كانت فى ذلك الوقت فى أوج قوتها ومجدها .. وكانت لها ممتلكات واسعة فى البلقان والأناضول والشام وأرض الجزيرة والفرات، وكانت تتمتع بسيادة كبيرة على شبه جزيرة العرب .. فكان فى إمكانه أن يشتت شمل هؤلاء المماليك ويفرق جموعهم .. ويقضى عليهم قضاء مبرما ، حتى لا تقوم لهم بعد ذلك قائمة .. ولكن السلطان سليم أبقاهم فى البلاد ، لأنه كان فى أشد الحاجة إليهم وإلى جهودهم .. كما أن بقاءهم فى مصر كان متمشيا مع سياسة الدولة العثمانية فى حكم الشعوب الخاضعة لها .. فالدولة العثمانية لم تغير كثيراً من نظم البلاد المفتوحة ولا سيما أن أمراء المماليك عاشوا فى مصر مدة طويلة .. وعرفوا أحوالها ، وخبروا عادات أهلها ونظم الحكم فيها .. فكان من السهل عليهم أن يديروا دفة الحكم فى البلاد ، بخلاف العثمانيين الذين لم تكن لهم سابقة عهد بمصر ولا بالمصريين .. ومن ناحية أخرى رأى السلطان سليم أن يترك أمراء المماليك يشتركون فى حكم البلاد ، ليحفظوا التوازن بين الوالى ورجال الحامية العثمانية وحتى لا يفكر أحد فى الاستقلال بحكم البلاد والخروج عليه فى يوم من الأيام . يقول على باشا مبارك فى خططه التوفيقية .. الجزء السابع (لما أخذ السلطان سليم مصر .. ورأى غالب حكامها من المماليك الذين ورثوها عن ساداتهم ، رأى أن بعد الولاية عن مركز الدولة .. ربما أوجب خروج حاكمها عن الطاعة .. وتطلعه للاستقلال .. فجعل حكومة مصر منقسمة إلى ثلاثة أقسام .. كل قسم منها يشرف على القسمين الآخرين) ..

من هذا يتبين أن إبقاء المماليك فى البلاد ، وإشراكهم فى الحكم ، كان الغرض منه إيجاد التوازن بين الهيئات الحاكمة ، والاستفادة بهم فى حكم مصر ..

ظلت سياسة السلطان سليم معمولا بها طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر .. واستمر هذا النظام نافذاً طوال هذه المدة .. كانت فيه الدولة العثمانية حافظة لمركزها وسمعتها الحربية ؛ فلما ظهر ضعف تركيا الحربى وانتشر الفساد والاضطراب داخل البلاد لم يعد هذا النظام نافذاً .. وأخذت قوة المماليك تزداد شيئاً فشيئاً حتى أصبحت لهم السلطة الفعلية فى البلاد ..

والسبب فى ذلك أن المماليك كانوا يشترون الرقيق من جورجيا والقوقاز وبلاد الجركس وكانوا يأتون بهم إلى مصر .. ويدربونهم فى سن مبكرة على أعمال الحرب والفروسية .. ويعلمونهم الكتابة والقراءة ويحفظونهم القرآن .. حتى إذا بلغوا الثامنة عشرة ، رقوهم إلى رتبة البكوية وجردوهم ومنحوهم ما لا وأرضا وجوارى وهؤلاء يتزوجون بدورهم ... ويملأون بيوتهم بالرقيق كما فعل أسيادهم من قبل ... وهذا كان سببا فى كثرة عددهم فى البلاد ... (١)

حتى إن عدد المماليك الكبار فى أواخر القرن الثامن عشر عند زيارة (فولنى) لمصر بلغ نحو (٨٥٠٠ مملوك) ينفق الواحد منهم على سلاحه وملبسه وزوجاته وسراريه نحو (٢٥٠٠ جنيه) فى العام على تقدير فولنى . يقول على باشا مبارك (وأخذت البكوات تكثر من المماليك وتتقوى بها حتى فاقت بقوتها الدولة العثمانية فى الديار المصرية ، فآل الأمر والنهى لهم فى الحكومة ... وصارت سلطة الدولة العثمانية فى الديار المصرية غير حقيقية . ولو كانت الدولة العثمانية تنبهت لهذا الأمر ومنعت بيع الرقيق لكانت الأمور باقية على ماوضعها السلطان) ...

كان نتيجة لهذه السياسة ... أن قوى نفوذ المماليك بدرجة كبيرة جداً ... حتى إنهم كانوا يعزلون الولاة حينما يشاءون . زد على ذلك أن ضباط الجيش وفرقه وهم أعضاء الديوان قد تدهورت حالتهم الأدبية ، وأفقدتهم عيشة الخمول والكسل صفاتهم الحربية الأولى ... فتغلبوا من بكوات المماليك الذين استأثروا بالسلطة وأصبح بيدهم الأمر والنهى فى البلاد « حتى إن أحد بكواتهم وهو على بك الكبير » استطاع ان يعلن استقلال مصر فى ١٧٦٩ .. كما أن المماليك كانوا كثيراً مايماطلون الدولة فى إرسال الخراج .. « ولرغبة[٢] الدولة فى استرضائهم لكيلا يمنعوا الخراج عنها ... كانت لا تكاد تبعث بوال من قبلها ، حتى تعزله وتعين بدله ... حتى لقد بلغ عدد ولاتها منذ الفتح العثمانى إلى الاحتلال الفرنسى ... أى من سنة ١٥١٧ م — ١٧٩٨ نحو ٢٨٠ سنة أكثر من مائة وال قل من أقام منهم

(١) فتح مصر الحديث أو نابليون .. للأستاذ حافظ عوض .. عن كتاب ..

Voyage en Egypte et en Syrie pendant les années 1783 — 84 — 85 . C. F. Volney.

(٢) فتح مصر الحديث أو نابليون .. للأستاذ أحمد حافظ عوض ص١٦

أكثر من عامين .. وكثر من بذل كل عام »

بهذا نكون قد بينا الأسباب التي دعت السلطان سليم إلى ترك المماليك في مصر .. وإشراكهم في الحكم .. ونكون أيضاً قد استعرضنا حالهم من وقت الفتح العثماني .. وبينا العوامل التي أدت إلى زيادة نفوذهم في البلاد .. وهناك ناحية أخرى يجب ألا نغفلها .. وهي حالة الشعب المصري تحت حكم هؤلاء المماليك .

قبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، كانت التجارة تمر عن طريق مصر .. فكان المماليك يأخذون منها ما يشاءون من ضرائب وهدايا ورشا .. هذا غير السلب والنهب .. وكانوا قانعين بما يفرضونه من الضرائب على المتاجر الأجنبية .. وما يدخل في خزائنهم من المال .. بحيث لم يروا ضرورة لظلم الفلاح .. وأخذوا يعيشون عيشة بذخ وترف .. فيرتدون أحسن المنسوجات .. ويسكنون أفخم القصور .. ولكن الحالة لم تدم على ذلك .. فعندما تغير طريق التجارة إلى رأس الرجاء الصالح .. قلت الأموال التي كانت تتدفق على مصر .. فلم يجد المماليك بداً من فرض ضرائب باهظة على الأهالي .. ولم يكن شرههم إلى المال قاصراً على حاجتهم إليه .. فلو كان الأمر كذلك لهان الأمر .. ولكن نظامهم قضى بألا يقوم لواحد منهم شأن إلا بالإكثار من المال وذلك لشراء المماليك .. والإغداق عليهم من أمواله وجاهه حتى يظلوا على ولائهم .. لهذا أخذوا يمتصون دماء الشعب ، ويحملونه مالا طاقة له به[1] . حتى وصل الحال بالفلاح المصري إلى أنه لم يجد مكانا يقيم فيه . فكان يلتحف العراء ، وذو اليسار منهم يعيش في أكواخ من الطين ، ولا يجد الواحد منهم ما يأكله سوى الخبز الأسود المصنوع من الذرة والحلبة .. يتناوله بالبصل النيء أو الأعشاب التي يجمعها من حروف الترع والمجاري ، ويطبخها بغير إدام ، وكان رداؤه قطعة من القماش المصبوغ بالنيلة وهي ميراث الفلاحين وإليها ينسبون (أصحاب الجلاليب الزرقاء) .. وأما الغنى والرفاهية ، والبذخ ، والذهب ، والفضة .. فقد كانت للمماليك .. ذكر فولني في كتابه (رحلة إلى مصر وسوريا) أن علي بك الكبير ابتاع خنجراً مرصعاً بالجواهر الكريمة يبلغ ٢٢٥ ألف جنيه ، وأنه حينما خذله

(١) نفس المصدر .

أنصاره ، التجأ إلى صديقه الشيخ ظاهر في عكا ، وكان مقدار ما أخذه معه من الأموال (حوالي أربعة وعشرين ألف جنيه) ، يحملها على ٢٥ جملاً ، وكان معه من المصاغ والحلي ما يساوي أربعة أضعاف ذلك . ويذكر أحد المؤرخين الذين زاروا مصر بعد سقوط القاهرة في أيدي الفرنسيين أن الجنود الفرنسيين كانوا يجدون في ملابس كل واحد من المماليك الصرعى في ميدان القتال في واقعة امبابة مالا يقل عن مائتين أو مائتين وخمسين قطعة من الذهب عدا ما تقدر به ملابس الواحد منهم وطيلسانه وسلاحه ومزاج جواده من المبالغ الطائلة ، هذا في الوقت الذي لم يكن أهل مصر يجدون فيه ما يأكلون !

وكان المماليك كثيراً ما يتنازعون فيما بينهم للوصول إلى الحكم ، ووجدت بينهم فتن وقلاقل وحروب داخلية عنيفة كانت توقع الفوضى بالبلاد ، وكانت الدولة العثمانية تعمل على بقاء هذه المنازعات بينهم .. بل إنها كانت تعمل على التفرقة بينهم وغرس بذور الأحقاد في صدورهم . حتى لا يستبدوا بالسلطة . فلم يكن من المعقول — والحال كذلك — أن تصلح حال الشعب المصري ، وحكامه المتصرفون في أمره .. منقسمون على أنفسهم ، لاهم لهم إلا جمع الأموال .. ولا غرض لهم ولا مأرب إلا الوصول إلى الحكم والسيطرة على مقاليد الأمور في البلاد .

كما أن المماليك كانوا كثيراً ما يعزلون الولاة . فلم تتح لهؤلاء الفرصة للاصلاح .. ولقد كان بعض أولئك الولاة كما أثبت المؤرخون ، من أهل الكفاية والإخلاص ، وذوي الرغبة في إصلاح ما اختل وفسد من شئون هذه البلاد .. فلا يكاد يشمر المماليك برغبته في الضرب على أيديهم .. وكف مظالمهم — حتى يقرروا عزله ، وكانت الدولة العثمانية تساعدهم على ذلك وتعترضهم حتى لا يمنعوا عنها الخراج .

لقد أخطأت الدولة العثمانية في سياستها مع المماليك — كما أخطأ المماليك في إدارة حكم البلاد ، وسواء أكان الخطأ يقع على كاهل المماليك أم على كاهل العثمانيين .. فإن هذه السياسة الخرقاء التي اتبعها كلا الفريقين . كانت من أكبر الأسباب التي أدت إلى وقوع الفوضى والاضطراب في مصر ، وبالتالي إلى دخول الفرنسيين في سنة ١٧٩٨ م .

عبد الباسط محمد حسن
ليسانس آداب
(الإسكندرية)